ابن حزم : الإسباني أو الفارسي
وتشيعه لبني أمية

الناصر الكتاني
الاستاذ بكلية الآداب
ودار الحديث الحسنية

كان أول معرفتي ابن حزم وانا فتى حديث السن لم اتجاوز الخامس عشرة من عمري ، زارنا بمنزلنا بفاس صديق قديم فناولني الجزء الاول من المحلى وقال : هذا أحدث كتاب طبعته مصر لرجل من الصدر الاول فقرأته حتى آخره ومنذ ذلك الحين وانا أحب ابن حزم وأتتبع آثاره والهج بذكره واسعى الى تحصيل معارفه وما استطيع من كتبه ، وشغفت بتتبع أخباره وترجمة حياته وما أعرف كتابا فيه لابن حزم ذكر ليس عندي الا جهدت ان احصل أو ان أطلع عليه حتى تصورت ابن حزم عملاقا في رجال الفكر والبحث أسدا في المناضلة والكفاح لا يمل ولا يعيا أمام خصومه معينا دفاقا من الحجج والبراهين والادلة وايرادها ، سيلا جارفا يبتلع معارضيه فيطويهم ويمتد الى آخرين ينازلهم الميدان .

وتلفت العلماء منذ الف سنة الى هذا السيل الداهم يتواصفونه من أين أقبل ، قال قائلون انه من فارس ، وان مصبه الاول يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان أمير الشام وأخو الملك معاوية .

نسب ابن حزم

قال (1) حيان بن خلف ابو مروان القرطبي : « وكان من غرائبه انتماؤه في فارس واتباع أهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر تولى فيها أبوه أحمد بن سعيد لبني أمية ، لا عن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عهده الناس خامل الابوة ، مولد الارومة من عجم « لبلة » جده الادنى حديث عهد بالاسلام !! لم يتقدم لسلفه نباهة فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذي بنى بيت نفسه » ولم يشذ أحد من الذين أرخوه فيما علمنا عن رفع عمود نسبه الى يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان ، واجمعوا كلهم على أنه علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان ابن سفيان بن يزيد الفارسي .

وأجمع كل من أرخه ممن ذكر عمود نسبه على أن جده الاقصى في الاسلام يزيد مولى يزيد بن ابي سفيان ، فاذا أضفنا الى ذلك ما نص عليه مؤرخوه القدامى والمحدثون من أنه ينتمي الى بيت رفيع من موالي بني أمية مترف بالجاه العريض والحسب الكريم والغنى والثروة والكلمة النافذة وقفنا جامدين أمام نص أبي مروان حيان بن خلف حيارى لا نعرف الذي يرمي اليه من وراء الحط على أسرة ابن حزم وانه خامل الابوة ومن العجم وجده الادنى وهو سعيد أول المسلمين من آبائه وأجدر بنا أن نسمي هذا سبا وشتيمة من أن نظنه تاريخا لعلم من الاعلام .

ولقد ذهب الاستاذ الكبير محمد ابو زهرة الى امكان أن يكون ذلك تشنيعا بأبي محمد ابن حزم من الفقهاء الذين ناضلهم واشتد في مجادلتهم .

وهذا جائز ، ولكن من أين أتى به ابن حيان ولم يتقدمه أحد به فيما علمناه ، ايكون ابن حيان غير ثقة فيما ينقل أم يكون خصما من خصوم ابن حزم والمعاصرة حجاب كما يقول علماء النفس من الصوفية .

---

(1) الذخيرة ص 142ـ143

ولكن أبا عبد الله محمد بن فتوح الحميدى يصفه فى الجذوة (2) بالصدق بل ينوه به أبو محمد ابن حزم ويثنى عليه .

هذه واحدة

أما انتماؤه الى فارس وامكان الطعن فى هذا الانتماء فما علمنا سببا يدعو ابن حزم الى التكثر بهذا الانتماء وهو الذى يذهب الى «أن روح (3) العصبية الفارسية هى مصدر المذاهب الضالة كلها فى الاسلام وان الفرس لما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب وكان العرب أقل الامم خطرا عند الفرس تعاظمهم الامر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الاسلام بالمحاربة له فى اوقات شتى ، ففى كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق وكان من قادتهم سنباد وأستاذيس والمقنع الكندى وبابك الخرمى وغيرهم وقبل هؤلاء رام ذلك عمار المنقب بخداش وأبو مسلم السراج فرأوا أن كيده على الحيلة انجع فأظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشناع ظلم على رضى الله عنه ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الاسلام » انتهى كلام ابن حزم .

فهل يصدر هذا عن رجل يتكثر بفارسيته ويلصق عصبيته بعصبيتهم وهو مع ذلك يروى فى البخارى عن أبى ذر انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ليس من رجل ادعى لغير ابيه وهو يعلمه الا كفر ، ومن ادعى قوما ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار .

وأما انه من عجم «لبلة» اى انه اسبانى الاصل فقد ارتأى الدكتور طه الحاجرى فى كتابه (4) «ابن حزم» صورة اندلسية «انه من أهل اسبانيا الغربية من أسرة كانت تقيم فى لبلة وكانت تدين بالنصرانية وظلت على نصرانيتها بعد الفتح الاسلامى أمدا غير قصير حتى اعتنق حزم الاسلام فى منتصف القرن الثالث الهجرى ويضيف ان اسم حزم كان اكثر شيوعا فى الاندلس منه فى المشرق كما يلاحظ فى هذا الاقليم الذى خرجت منه أسرة ابن حزم وان حاكم لشبونة فيه كان اسمه فى وقت غزو النورمانديين اى سنة 229 وهب الله ابن حزم » .

والى هذا ذهب المستشرق غرسية غومس الاسبانى فقال (5) عن ابن حزم انه كان اسبانيا خالصا ، ورأت الحكومة الاسبانية أخيرا ان فى نسبة ابن حزم الى جنسها الاسبانى شرفا كبيرا لقومها فأقامت له نصبا فى أحد ميادين قرطبة بمناسبة مرور نحو الف سنة على وفاته تحية لذكراه وتعلقا بهذا النسب الذى أضفى على أسرة ابن حزم .

وسواء كان ابن حزم اسبانى الاصل او فارسيه فان شيئا من هذا لا يجيز للمؤرخ اختراع أحداث التاريخ ، فما من أحد من العلماء العرب ذكر عن حزم أنه اول أجداده اسلاما فيما نعلم بل القولة الوحيدة التى لا يجدها الباحث عند احد من المؤرخين هى ما زعمه أبو مروان حيان بن خلف من أن جده الادنى اى سعيد أول أجداده دخولا للاسلام مع العلم أن كلا من ابى مروان وابن حزم ينتسبان الى ولاء بنى أمية .

واذا ذهبنا نبحث فى جدية الاستدلال عن اسم حزم وانه فى الاندلس اكثر شيوعا منه فى المشرق وان حاكم لشبونة كان اسمه فى وقت غزو النورمان وهب الله ابن حزم لم نجد فيه من العلم ما يكلفنا الاستدلال على نقضه وخاصة ان فى الصحابة والتابعين وتابعيهم من كانت أسماؤهم وأسماء آبائهم واجدادهم حزما ونذكر على سبيل التذكر حزم بن عبد عمرو الخثعمى ، وحزم بن عمرو الواقفى ، وحزم بن ابى كعب الانصارى ، وعمرو بن حزم الخزرجى الانصارى استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل نجران .

ومن التابعين أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الانصارى عامل عمر بن عبد العزيز على المدينة وحزم بن أبى حزم شيخ الحسن البصرى وتوفى سنة 175 هـ ، ومن تتبع من أسماؤهم حزم فى المشرق من العرب الخلص وجد من لا يكاد يحصيه عدا فلا حاجة بنا الى الاستكثار ممن اسمه حزم ، وشيوعية اسم حزم فى الاندلس أو فى المشرق لا تفيد كثرتها أو قلتها نسبا او تنفيه عن صاحبه فالاستدلال بمثل هذا فى مثل هذا الموطن لا نحسبه جدا يشتغل به أهل العلم .

---

(2) ص 188
(3) تاريخ الفكر الاندلسى ص 226 نقلا عن ج 2 من الفصل ص 115
(4) ابن حزم صورة اندلسية ص 17
(5) تاريخ الفكر الاندلسى ص 76

تعصب ابن حزم لبنى أمية

قال (6) ابو مروان بن حيان : « وكان مما يزيد فى شناعته تشيعه لامراء بنى أمية ماضيهم وباقيهم بالمشرق والاندلس واعتقاده لصحة امامتهم وانحرافه عمن سواهم من قريش حتى نسب الى النصب » .

واذا نحن تتبعنا ما كتب ابن حزم عن بنى أمية أو ما له صلة ما او سبب بهم وجدناه يقول عن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان النص (7) التالى : « قد هتك يزيد الاسلام هتكا وانتهب المدينة ثلاثا ، واستخف بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى واقعة الحرة جالت الخيل فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وراثت وبالت فى الروضة بين القبر والمنبر ولم يصل جماعة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كان فيه أحد حاشا سعيد بن المسيب » . والى جانب هذا يقول ابن تيمية (8) عن يزيد : «ان احدا لم يكن يسب يزيد على عهد الصحابة والتابعين بل هناك من يعتقده وليا ! ومن يسبه ويلعنه وهذا غلو فيه من الطرفين خلافا لما أجمع عليه أهل العلم بالايمان فيزيد لم يكن كافرا ولا زنديقا !! وكان فيه شجاعة وكرم !! ولم يكن مظهرا للفواحش كما يحكى عنه خصومه ! بل طائفة من أهل السنة يجيزون لعنه ، وطائفة أخرى ترى محبته ! وانه مسلم تولى على عهد الصحابة وبايعه الصحابة وكانت له محاسن وكان مجتهدا !!!؟ فيما فعله .

هذا ابن تيمية امام اهل السنة وسيفها المسلول فى وجه المبتدعة والضاربين وجه الاسلام .

أما الذهبى وهو الناقد البصير من أهل الجرح والتعديل فى علماء الحديث ومن اهل السنة والجماعة فانه يقول : (9)

يزيد بن معاوية كان ناصبيا فظا غليظا جلفا يتناول المسكر ويفعل المنكر افتتح دولته بقتل الحسين الشهيد رضى الله عنه واختتمها بوقعة الحرة ولم يبارك له فى عمره . (10)

قال الحافظ ابن حجر : النصب بغض على ابن أبى طالب وتقديم غيره عليه .

ثم نقول لابى مروان عن تشيع ابن حزم لبنى أمية : قد ذكر ابن حزم مروان بن الحكم فى معرض حديث فاطمة بنت قيس المخرج فى صحيح مسلم والتى روت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى المطلقة ثلاثا انها لا نفقة لها ولا سكنى فقال مروان اذ عرض عليه حديثها : « لم يسمع هذا الحديث الا امرأة ... سنأخذ بالعصمة التى وجدنا الناس عليها .

قال ابن حزم : (11) « لو ان مروان تورع هذا الورع حيث شق عصا المسلمين وخرج على ابن الزبير أمير المؤمنين بلا تأويل ولا تمويه فأخذ بالعصمة التى وجد جميع الناس وأهل الاسلام عليها من القول بامامة ابن الزبير من أقصى أعمال افريقية الى أقصى خراسان حاشا أهل الاردن لكان اولى به وانجى له فى آخرته » .

مروان بن الحكم أبو الاملاك يقذفه ابن حزم بالمروق وشق عصا المسلمين أيقول هذا متعصب قط لبنى أمية فضلا عن رجل يوسم بالنصب عصبية لبنى مروان من الامويين ومع ذلك فقد تجاوز ابن حزم شخص مروان تجاوز أهل العلم الذين يقدرون مواقع الاصابة والخطأ فيما يصنعون أو يقولون وترك لابن سعد يتمم قصة الحرة . لما وثبوا (12) ببنى أمية فأجلوهم عنها الى الشام وفيهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان وأخذوا عليهم الايمان الا يرجعوا اليهم وان قدروا أن يردوا جيش مسلم بن عقبة المرى ان يفعلوا فلما استقبلوا مسلم بن عقبة سلموا عليه وجعل يسائلهم عن المدينة واهلها فجعل مروان يخبره ويحرضه عليهم ورجع معه مؤازرا له ومعينا له على أمره حتى ظفر بأهل المدينة وجعل عبد الملك بن مروان يدله على عورات أهل المدينة وكيف يؤتون ومن أين يدخل عليهم وأين ينزل فلما جاء آخرا عبد الملك بن مروان خبر هزيمتهم سجد ، وكتب مسلم بن عقبة بذلك الى يزيد وكتب يشكر مروان بن الحكم ويذكر معونته اياه ومناصحته وقيامه معه وقدم مروان على يزيد بالشام فشكر له ذلك يزيد وقربه وأدناه .

---

(6) الذخيرة القسم الاول ص 142

(7) الروض الباسم ج 2 ص 36 نقلا عن الذهبى فى النبلاء . (8) فى رسالة ابن تيمية الى جماعة الشيخ عدى بن مسافر الاموى . (9) الروض الباسم نقلا عن الذهبى فى النبلاء ج 2 ص 36 . (10) مقدمة فتح البارى ج 2 ص 460 .

(11) المحلى ج العاشر ص 299

(12) ج 5 طبقات ابن سعد ص 38_39_255

وقال ابن حزم (13) عن عبد الملك بن مروان نفسه لقد أحسن أمير المومنين عبد الله بن الزبير لما ابتداه الفساق بالقتال فى حرم مكة : يزيد ، وعمرو بن سعيد ، والحصين بن نمير ، والحجاج ، ومن بعثه ، ومن كان معهم من جنود السلطان قاتلهم مدافعا عن نفسه .

وانما بعث الحجاج عبد الملك بن مروان ، وهنا تجرأ علنا أن يسمى فاسقا يزيد بن معاوية وعبد الملك ابن مروان . والولاة الامويين ، وقال (14) عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك انه كان فاسقا كافرا .

وهذا مثل آخر يقوم شاهدا على تزييف ما يلصق بابن حزم من تشيعه لامراء بنى أمية ماضيهم وباقيهم بالمشرق والاندلس ، فقد عقد ابن حزم فصلا كبيرا فى كتابه (15) الاحكام فى أصول الاحكام يبطل به ترجيح الحديث بعمل أهل المدينة وذكر نسخة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كتب فى الصدقة وهى عند آل عمر بن الخطاب وهى التى انتسخها عمر بن عبد العزيز من سالم بن عبد الله بن عمر حين أمر على المدينة فأمر عماله بالعمل بها وكتب بها الى الوليد بن عبد الملك فأمر الوليد عماله بالعمل بها ثم لم يزل خلفاء بنى أمية يأمرون بها قال ابن حزم وقد عمل عمال عثمان قبل ذلك بغير ما فى هذه النسخة وعمال على رضوان الله عليه بما جاءت به الرواية عنه وعمال ابن الزبير بعد ذلك وعمال أبى بكر الصديق بغير ذلك قال ابن حزم :

«فما الذى جعل عمال الوليد الظالم ومن بعده ممن لا يعتد به حاشا عمر بن عبد العزيز وحده اولى من عمل ابن الزبير وعلى وعثمان وابى بكر ثم قال بعد ذلك وأما مذ مضى هذا الصدر الكريم ـ ويريد به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلفاء وعمالهم على الاقاليم ـ فوالله ما ولى المدينة ولا حكم فيها الا فساق الناس كعمرو بن سعيد والحجاج بن يوسف وطارق وخالد ابن عبد الله القسرى وعبد الرحمن بن الضحاك وعثمان ابن حيان المرى وكل عدو لله حاشا أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم وابان بن عثمان وعمر بن عبد العزيز وأولئك كانوا ولاة بنى أمية على المدينة وعمالهم .

وشاهد آخر من ابن حزم نفسه فى كتابه الاحكام فى فصل عقده لابطال الادعاء ان اجماع أهل المدينة هو الاجماع فقال : (16) «فان موهوا بما روى من عمل قضاة المدينة الذين أدرك مالك فليعلم كل ذى فهم أن النازلة كانت تقع بالمدينة وغيرها فلا يقضى فيها الامير ولا القاضى حتى يخاطب الخليفة بالشام ثم لا ينفذ الا ما خاطبه به ثم قال مستخفا بأمراء مؤمنى بنى أمية :

فانما هى أوامر عبد الملك والوليد وسليمان ويزيد وهشام والوليد بحسبكم !!

وهذه لقطة عجيبة وجدناها فى ترجمة على بن ابى طالب فى كتاب (17) جوامع السيرة لابن حزم وهو يؤرخه اذ يقول عن على انه ولى الخلافة يوم قتل عثمان وتأخر عن بيعته قوم من الصحابة « بغير عذر شرعى » .

وما نعلم مؤرخا من أهل السنة ممن يحرصون على الا يوسموا بالتشيع بله التعصب لبنى أمية تجرأ أن يقول عن الصحابة الذين لم يبايعوا عليا انهم تخلفوا عن بيعته لغير عذر شرعى .

هذا تعبير فريد من رجل يقال عنه انه ناصبى متشيع لبنى مروان ، وأسلوب جرىء فى كتابة التاريخ من رجل قد وزر لملوك بنى أمية وكان أحد أعمدتهم فى سياسة الاندلس وفى قيادتها وكان رأس بيت مناصر لهم متمسك بحقهم فى العرش لطول ما اتصل رجاله بخلفائهم وأقاموا فى خدمتهم هكذا يقول مؤلف كتاب تاريخ الفكر الاندلسى عن ابن حزم حين أخرج عن قرطبة على اثر قيام الفتنة البربرية بها .

وهذا مثل آخر عجيب من أموية ابن حزم اذ يقول(18) وهو يوازن بين عصر بنى أمية وعصر بنى العباس : « كانت دولتهم ـ أى بنى العباس ـ أعجمية سقطت فيها دواوين العرب الا انهم لم يعلنوا سب أحد من الصحابة رضوان الله عليهم بخلاف ما كان بنو أمية يستعملون من لعن على بن أبى طالب رضوان الله عليه ولعن بنيه الطاهرين بنى الزهراء وكلهم كان على هذا حاشا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد رحمهما الله .

---

(13) المحلى ج 10 ص 497 جوامع السيرة ص 364 .
(14) جوامع السيرة ص 364 .
(15) ج 2 ص 113ـ115
16) ج 4 ص 218
(17) جوامع السيرة ص 355 .
(18) جوامع السيرة ص 366 .

هذه أمثلة على مدى تشيع ابن حزم لامراء بنى أمية بالمشرق .

أما بالاندلس فيقول (19) عن محمد المستكفى بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر انه « كان سلطانا جائرا ظالما عاديا قليل الدين كثير الجهل غير مأمون ولا متثبت »

وعن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية انه (20) كان فتانا تهون عليه الدماء ومع ما كان يظهره من عفه فانه احتال على أخيه المنذر وواطا عليه حجاما سم المبضع الذى فصده به ، ثم قتل ولديه بالسيف واحدا بعد واحد وقتل أخاه القاسم تالتهم الى أن قتل من قتل من غيرهم»

ونجمل الحديث عن تشيع ابن حزم لامراء بنى أمية بالاندلس وبالمشرق جميعا بما ذكره (21) لسان الدين ابن الخطيب عن ابن حزم وهو يؤرخ هشام بن عبد الرحمن بن معاوية فقال وعده ابو محمد ابن حزم ثالث ثلاثه من العدول فى بنى امية خاصة .

والثلاثة الامويون العدول الذين عناهم من ملوك بنى أمية وخلفائهم والذين سماهم فى كتبه هم عمر ابن عبد العزيز ، ويزيد بن الوليد فى المشرق وهشام بن عبد الرحمن هذا فى الاندلس على الرغم من انه كان يذكر ملوك الاندلس الامويين فى كتابه طوق الحمامة ويترضى عنهم وهو بعد فتى فى ريعان الشباب لم يعرف الدنيا كما عرفها بعد أن سلخ الشباب وعركته الايام فعرفته هى كذلك .

قال (22) لسان الدين ابن الخطيب :

والامام ابو محمد فى التجريح والتعديل حجة على قومه وسوق الملك لاتنكر فيها هذه البضائع !

وكيف نستسيغ اتهام ابن حزم بالتشيع لبنى أمية وهو يقول (23) عن على ابى طالب بالنسبة لافضلية ابى بكر عليه ان أبا بكر ليس خير الناس فى كل شىء فقد يكون المرء خيرا فى شىء ما من آخر خير منه فى أشياء فقد عذب بلال فى الله تعالى بما لم يعذب ابوبكر **وجالد على مالم يجالد ابو بكر** وان يكن أبو بكر خيرا منه على العموم وفى اشياء غير هذا كثيرة

وفى معرض حديث ابن حزم عن طائفة النصيرية وموقفها من فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنيها الحسن والحسين قال (24) : « رضى الله عنهم ولعن مبغضيهم »

وسبق لابى عبد الله ابن الوزير مؤلف كتاب الروض الباسم فى الذب عن سنة ابى القاسم المتوفى سنة 840 أن زين (25) اتهام ابن حزم بالتعصب لبنى أمية قائلا ان ابن حزم « يرد على من رماه بالعصبية ويشهد له بالسلوك من الانصاف فى طريق سوية »

وكذلك جاء فى مقدمة كتاب جوامع السيرة لابن حزم التى كتبها صديقنا الدكتور ناصر الدين الاسد مدير جامعة عمان فى المملكة الاردنية حاليا والدكتور احسان عباس بان اتهام ابن حزم بالتشيع لبنى أمية والانحراف عمن سواهم من قريش اساءة كبيرة الى رجل عاش من طلاب الحق وعشاقه فى القول والعمل فليس فيما كتبه ابن حزم مايشير الى شىء من التعصب لهم » .

« ابن حزم وموقفه من قاتل على بن ابى طالب »

ومع ذلك فقد قال ابن حزم عن عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على : « لاخلاف (×) بين أحد من الامة فى أن عبد الرحمن بن ملجم لم يقتل عليا رضى الله عنه الا متأولا مجتهدا مقدرا انه على صواب وفى ذلك يقول عمران بن حطان شاعر الصفرية

يا ضربة من تقى ماأراد بها
الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
انى لاذكره حينا فأحسبه
اوفى البرية عند الله ميزانا

وكذلك قال محمد (26) بن ادريس الشافعى قد قتله عبد الرحمن بن ملجم متأولا

---

(19) التقريب لحد المنطق والمدخل اليه ص 199
(20) اعمال الاعلام لابن الخطيب ص 29 .
(21) نفس المصدر ص 14 .
(22) اعمال الاعلام ص 14
(23) ج الحادى عشر من المحلى ص 286 .
(24) الفصل ج 4 ص 188
(25) الروض الباسم ج 2 ص 36
(26) تلخيص الجير ج 2 ص 348
× ج العاشر من المحلى ص 484 .

قال الحافظ (27) ابن حجر : هذا كلام لاخلاف فى بطلانه وهو مبالغة من ابن حزم الا اذا حمل على أنه كان كذلك عند نفسه وإلا فلم يكن ابن ملجم قط من اهل الاجتهاد ولا كاد وانما كان من جملة الخوارج إهـ

وابن حزم لاينظر الى الخوارج نظرةفقهاء المذاهب الاسلامية اليها بل لايرى (28) ان الخوارج فساق ولا غيرهم من أصحاب المذاهب الاسلامية المخالفة لمذهب أهل السنة ، ولا كل ذى رأى يعتقده يستدل عليه من كتاب الله او سنة رسول الله او برهان صحيح ، فهو يرى ان من قامت عليه الحجة بحديث لامعارض له أو آية لامعارض لها أو برهان ضرورى فتمادى على مذهبه أو قوله المخالف للحق او تناقض فاحتج فى مكان مما لا يصح مثله فى غير ذلك المكان وبنى عليه ذلك فتمادى على قوله الفاسد فى فتيا فى شىء من الفقه أو فى اعتقاد فهو فاسق وكل ذلك سواء .

ومع كل هذا فقد ذكر (29) عبد الرحمن بن ملجم فى كتابه الفصل فى معرض الحديث عن طائفة النصيرية وقال لعنة الله على ابن ملجم

وها هنا شىء آخر لا يذهب اليه أموى قط الا أن تكون أمويته فى جانب وهو فى الجانب الآخر وهو المفاضلة بين عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب واحتمال أن يكون على أفضل وعدم لوم من يفضل عليا على عثمان ، فقد قال ابن حزم (30)

« والذى يقع فى نفوسنا دون أن نقطع به ولا نخطىء من خالفنا فى ذلك فهو أن عثمان أفضل من على ».

ثم استدل لما يقع فى نفسه دون أن يقطع به بأن النبى صلى الله عليه وسلم بايع عثمان بيده الشريفة نائبة عن يمين عثمان وألحقه بالذين شهدوا بدرا بأجره التام وسهمه وكان قد تخلف عنها لتمريض زوجته ابنة النبى صلى الله عليه وسلم ثم كانت له فتوحات عظيمة فى الاسلام لم تكن لعلى وسيرة فى الاسلام هادئة !! لم تسفك فيها دماء بسببه »

ولما كان ابن حزم يعدد كبائر الذنوب والمعاصى فى رسالته : «التلخيص لوجوه التخليص » لم يعد منها بغض عثمان أو أمير من أمراء بنى أمية بل ولا بغض أبى بكر او عمر بل جعل (31) منها ترك الصلاة وترك الزكاة وبغض على بن أبى طالب .

واخلاصا منى المعلم ، وارضاء لضميرى . وتصحيحا لموقف اتخذها كثير من علمائنا فى صدر التاريخ العربى فانى ذاكر هنا حقيقة يتجاهلها اهل العلم بالجرح والتعديل من علمائنا القدامى والمحدثين وهى ما كان للسياسة فى العصر الاموى والعباسى وللاتجاه الحزبى الصارم فى كلا العصرين من الاثر الاكبر فى نفوس كثير من العلماء الصالحين وكثير من رجال النقد فى تخطى حقائق التاريخ ووقائع الحياة الاسلامية هربا بانفسهم ان يوسموا بالموالاة لعلى أو لاهل بيته وكان وقع الاتهام بالتشيع لهما فى كلا العصرين مماثلا لاتهام بالموالاة للاخوان المسلمين أيام محنتهم فى البلاد العربية او بالاخلاص للشيوعية او الانتماء اليها فى بلد كأمريكا او الاتهام بموالاة اسرائيل فى بلاد الجامعة العربية .

وعلما من رجال الشريعة الاسلامية السابقين بأن الشريعة تبيح لهم اذا خافوا على أنفسهم الهلاك أن يتجنبوا ما خافوه على أنفسهم فقد تجنب هؤلاء الاعلان عن انفسهم بموالاة على وأهل بيته وحملهم هذا الشعور أن يتحروا الرجال الذين يحملون الحديث ، أن يكون أحدهم ملوثا بالموالاة لهما وبلغ تحريهم هذا منتهاه حين أصبح الاتهام بموالاتهما جرحا فى الرجل يرخص به حديثه وتضعف به روايته وقد يطرح من أجله الحديث نفسه فلا يكون قابلا للاحتجاج به عند عامة أهل الحديث .

وحسبك مثلا واحدا على مدى الدهر الذى كان يختلج النفوس فى هذين العصرين أن تمر مرا على كتاب مقاتل الطالبيين لابى الفرج الاصبهانى الاموى القح صاحب كتاب الاغانى لتعرف أية جريمة نكراء يرتكبها امرؤ فى حق نفسه اذا هو والى طالبيا او عرف به .

ولم يستطع شيخ الاسلام ابن تيمية وهو الاموى

---

(27) نفس المصدر و ج و ص
(28) ج 5 من الاحكام ص 73
(29) الفصل ج 4 ص 188
(30) الملل والنحل ج 4 ص 147 .
(31) ص 143 من مجموعة الرد على ابن النغريلة اليهودى
(32) منهاج السنة ج 4 ص 155

النزعة وحامل لوائها الا أن يصرح (32) بأن أهـــل الصحيح أى الذين التزموا اخراج الاحاديث الصحيحة فى كتبهم لم يخرجوا شيئا مـــن حديث ابن عبـــاس عـــن على .

ومع ذلك فقد اشتملت كتب الحديث من رواية على على خمسمائة وستة وثلاثين حديثا يصح منها نحـــو خمسين حديثا حسب تصريح ابن حزم (33) .

كذلك صرح (34) الذهبى امام اهل الحديث فـــى نقد الرجال ان جعفر الصادق لم يحتج به البخارى مـــع العلم ان البخارى احتج بمروان بن الحكم وهو مـــن تعلمون وبعمران بن حطان وهو المضفى على عبد الرحمن ابن ملجم صفة الجهاد والقداسة لقتله على بن أبى طالب. وكان جعفر يقول للناس سلونى قبل أن تفقدونى فانه لا يحدثكم أحد بعدى بمثل حديثى .

وهذا مثل عجيب للاتهام بالتشيع فى تلك العصور يقصه الذهبى : فقد كان منصور بن المعتمر أحد العباد الثقاة من رجال الحديث الاعلام يبكى الليل كله فاذا أصبح كحل عينيه وبرق شفتيه ودهن رأســه حتى لا يظهر اثر قيام الليل على وجهه فيعرف بعبادته فتقول له أمه أقتلت قتيلا يابنى فيقول أنا أعلم بما صنعت نفسى ، وصام منصور اربعين سنة وقام ليلها وكـــان قد عمش من كثرة الادمان على البكاء .

ومع هذا ينقل (35) الذهبى عن احمد العجلى أن منصورا كان فيه قليل من التشيع .

وفى هذين العصرين نشأ علم الحديث وترعرع ثم اكتهل حيث انتهى الى غايته واعجب لهذا التعبير مـــن ابن حزم اذ يقول (36) مؤرخا للمأمون :

وكان يرى حب آل البيت ولا يعطى من أعـــرض عنهم او انتقصهم فقيل كان يتشيع .

وهذا حديث الذهبى عن هـــذا الموضوع مختصر جامع موجز ولو انه محتشم من نفسه اذ يقول : (37) .

ان فى الخلفاء وآبائهم واهليهم قوما أعرض أهل الجرح والتعديل عن كشف حالهم خوفا من السيـف والضرب ، وما زال هذا فى كل دولة قائمة يصـــف المؤرخ محاسنها ويغضى عن مساويها هـــذا اذا كـــان المؤرخ ذا دين وخير فان كان مداحا مداهنـــا فربما اطرح مساوى الكبير وهناته فى هيئة المدح والمكارم والعظمـــة .

الناصر الكتانى
استاذ محاضر بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس
وأستاذ دار الحديث الحسنية بالرباط

---

32 منهاج السنة ج 4 ص 100 .
(33) اسماء الصحابة والرواة وما لكل واحد مـن العدد لابن حزم ص 276 .
(34) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 157
(35) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 135
(36) جوامع السيرة ص 370
(37) الاعلان بالتوبيخ للسخاوى ص 66 .